نضال

فصل من رواية طرطوف لموليير

ترجمة احمد الصاوي محمد

طرطوف Tartuffe هي رواية موليير الخالدة التي كتبها عام ١٦٦٤. وهي أصدق روايات شاعر فرنسا العظيم اذ مثل رياء الاتقياء الزائفين في أبشع الاشكال. وبعد ما كان «طرطوف» اسم رجل صار علماً على كل من يتظاهر بالصلاح او الفضل وليس من اهله

وهذه القطعة المختارة من الفصل الثالث تقفنا على ضرب من ضروب النزاع الابدي بين الخير والشر، بين الفضيلة والرذيلة، وفيها صفحة بديعة لامرأة عفيفة تصيد لرجل جبار وتذود عن شرفها

الفصل الثالث — المنظر الاول

دامیس — دورين

دامیس : ألا فلتعجل الصاعقة أجلي، وليجرؤ الناس على وصفي بأحط العاطلين إذا كانت في الورى قوة أو حرمة تعوقني عن إنفاذ ما يجول برأسي

دورين : ترفق بنفسك وخفف من حدتك، فأن أباك لم يزد على أن أشار الى ذلك، وليس كل ما يُقال يُقضى وما أبعد ما بين الرسم والانفاذ

دامیس : عليَّ أن أقف دسائس هذا المغرور، وأن أصكَّ مسمعهُ بكلمتين

دورين : ها .. رويداً ! .. دع الامر يسوّى بينهُ وبين أبيك بفضل سيدتي حماتك فلها عند هذا الطرطوف مكانة خاصة، وهو يرضى بكل ما تقوله ولعله يُسكنُّ لها حناناً، وليت هذا يكون صحيحاً فيصبح الموقف بديعاً، ثم أن عنايتها بأمركم تحملها كذلك على استدعائهِ فتسبر غوره في أمر هذا القران الذي يشغل بالكم وتتبيّن عاطفتهُ وتُفهمهُ ما يسببهُ من المشاكل إذا بدا منهُ ما يشجع الامل فيهِ . . . يقول خادمه أنهُ الآن يصلي فتعذرت عليَّ رؤيته وهو لا يلبث أن ينزل، فأرجوك أن تخرج وتدعني في انتظاره

دامیس : لي أن أشهد كل هذا الحديث !

دورين : ألبتة ! .. لابدَّ أن ينفردا

داميس : ولكنني لن أقول شيئاً

دورين : أنت تمزح ، ونحن نعلم أن الحدة من طبعك .. وهذه حقاً هي الوسيلة إلى إفساد الامر علينا .. فاخرج !

داميس : كلا ! .. إني أريد أن أرى دون أن أثور

دورين : يا لك من فضولي ! .. ها هو ذا أقبل !.. فاذهب !

المنظر الثاني

طرطوف — لوران — دورين

طرطوف : (يلمح دورين) لوران ! .. هيء لي مسوحي الخشنة وسوط التعذيب واسأل السماء أن تنير قلبك دائماً وإذا جاء أحد للقائي فأني ذاهب الى المسجونين لتوزيع ما رزقنا من الصدقات عليهم

دورين : يا للتظاهر والرياء !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك ...

طرطوف : (يخرج منديلاً من جيبه) آه ! .. رباه ! .. أسألك أن تأخذي هذا المنديل قبل أن تتكلمي !

دورين : ماذا ؟ ..

طرطوف : أستري هذا الصدر الذي ليس لي أن أراهُ .. فتلك أشياء تجرح النفوس وتبعث الافكار الخاطئة

دورين : أنت إذن سهل الغواية ، وللجسمانيات تأثير كبير في حواسك !.. وتالله ما أدري ما هذه الحرارة التي تتمشى فيك . أما أنا فلست سريعة الاشتهاء مثلك ولو أنني رأيتك عارياً من فرع الى قدم لما تحركت في جسدي شعرة !

طرطوف : تواضعي قليلاً في كلامك ، وإلاّ تركتُ لك مجالك من فوري

دورين : لا ! لا ! أنا التي تدع لك صفوك ، وليس لي غير كلتين أقولهما لك. سيدتي ستأتي الى هذا البهو ، وهي تتمنى عليك الحديث برهة

طرطوف : أسفاً ... بكل ارتياح !

دورين : (لنفسها) سرعان ما عاد الى التلطف ! .. وذمتي انني باقية على رأيي!

طرطوف : أهي على وشك الحضور ؟

دورين : إنني أسمعها ، على ما يخيل اليّ ، أجل إنها هي بعينها القادمة والآن أدعكما وحدكما

المنظر الثالث المير — طرطوف

طرطوف : فيت السماء الرحيبة شهباك دائماً قوة الروح وصحة الجسد فتبارك أياك بقدر ما يتمناه لك أخضع العبيد الطلهين بحبها ...

المير : لشد ما أنا شاكرة لهذا السماء الصالح ، ولكن لنجلس فيكون حديثنا أروح

طرطوف : أتريك شفيت تماماً من علتك ؟

المير : إني بخير . . فما وفدت الحمى حتى زالت

طرطوف : لا يبلغ من صلواتي أن تكون قد استنزلت هذه النعمة العلوية . بيد أني لم أرفع إلى الله دعاء واحداً طارًا إلا كان القصد منهُ شفاءك !

المير : لقد أسرفت على نفسك في انضراعة من أجلي !

طرطوف : لا إسراف في إعزاز صحتك الغالية . . ولكي تردُّ اليك كنت أبذل صحتي فداها !

المير : لقد تغالبت في المحبة المسيحية . . واني لمدينة لك ديناً كبيراً من اجل هذه الحسنات

طرطوف : إن عملي دون ما أنت به جديرة

المير : أردت أن أحدثك سرًّا في أمر ، واني مرتاحة الى أنهُ ما من أحد هنا يسرق السمع والنظر

طرطوف : وافرحتي بهذا أيضاً ! وإني يقيناً ليطيب لي كذلك يا سيدتي أن اخلو بك فهذه فرصة طالما ترقبتها من السماء فلم تتحها لي إلا الساعة !

المير : إن ما أطلبهُ هو حديث تصح لي فيه قلبك ولا تخفي عني شيئاً

(يوارب دامياس باب الغرفة المتصلة التي كان قد دخلها ليسمع الحديث)

طرطوف : ولست أريد كذلك من نعمة خاصة إلا أن أكشف لك عن روحي بأكملها ، وأن أقسم أن التململ الذي بدا مني لكثرة توارد الزوار الذين تجنبهم محادثتك ، ليس سببهُ حقداً ما ، وإنما هي حمية تهيجني ، وبادرة تقية

المير : إني أحمل ذلك أيضاً محملاً حسناً ، وأعتقد أن خلاص نفسي يشغلك بهذا القدر

طرطوف : (يضغط على أطراف أناملها) أجل يا سيدتي ، بلا ريب ، وإن ما يخطر في قلبي ليبلغ . . . .

المير : أف ! . . إنك لبالغ في ضغط يدي

طرطوف : هذا من فرط حبي ، وما أردت قط لك إيلاماً ، بل بالأحرى أردت . . . .

(يضع يده على ركبتها)

المير : وما لديك هنا ؟

طرطوف : أجسُّ ثوبك . . فإن نسيجه ناعم

المير : آه ! . . توفق ! . . فإن الغمز يثيرني ! (وتنأى بكرسيها فيدنو بكرسيه ! !

طرطوف : لله ما أبدع صنع هذه «الدنتلة» ! . . الناس الآن يشتغلون بخلق تجيب . . ولم نرَ قطّ في شيء مثلَ هذا الاتقان

المير : صدقت . . ولكن لنتكلم قليلاً في شأننا . . يقال أن زوجي سينقض عهده ويعطيك يد ابنته . . أهذا صحيح ؟ قل لي !

طرطوف : إنه قال لي في ذلك كلمتين ولكن الحق يا سيدتي أنهُ ليست هذه هي السعادة التي أُمني النفس بها . . وأرى في ناحية اخرى جوانب الهناء الرائع مطمعاً لآمالي

المير : ذلك انك لا تحب شيئاً من متاع هذه الدنيا !

طرطوف : ليس صدري منطوياً على قلب من حجر ؟

المير : أما أنا فأعتقد أن كل تنهداتك ابتغاء وجه الله وليست بين رغباتك وهذه الأرض صلة . . .

طرطوف : هيهات الحب الذي يعلقنا بالجمال الأبدي أن يخمد فينا الحب الدنيوي . . وما أسهل ما تسحر جوارحنا بجميل صنع الباري الذي تتجلى آياته فيمن كان على مثالك ! . . انه قد اظهر فيك كل نادر من بدائع صنعه وأنزل على محياك آيات الحسن تحار فيها العيون وتشغف بها القلوب . . وما استطعت أن أراك أيتها الانسانة الكاملة دون أن امجد فيك مبدع الكائنات ، وان يختلج قلبي بحب مستعر من رؤية أفتن الصور التي تمثل بجلاله فيها . وكنت بدعة اشفق ان يكون هذا اللاعج الدفين مفاجأة حاذقة يدهمني بها الشيطان حتى أنني أضمرت الفرار من عينيك زعماً مني انك عقبة في سبيل خلاصي ، ثم انتهيت إلى أن عرفت ، يا ذات الجمال الذي يعشق كل ما فيهِ ، أن هذا الهيام قد لا يكون خاطئاً ، وأنه يمكنني أن اوفق بينه وبين الحياء ، ولذلك استلت اليه قلبي وأعترف أنها جرأة عظيمة مني أن اجسر على تقديمي قلبي لك قرباناً . . ولكني أتوقع من سماحتك لا من جهودي الضعيفة الضائعة ، ما يحقق أماني . فيك خيري وطمأنينتي ورجائي ، وفيك ألمي أو هنائي ، وبين يديك سعادتي او شقائي

المير : هذه المكاشفة غاية في الظرف . . ولكنها والحق يقال تدهش نوعاً ما . . ويلوح لي أنهُ كان عليك أن تسلّح بأحسن من هذا فؤادك ، وأن تزن قليلاً مثل هذا القرض . . فتقيّ مثلك في كل مكان يوصف . . . .

طرطوف : آه ! . . إن تقواي لا تنقص من رجولتي . . وعند ما يرى المرء محاسنك

السماوية يعلق القلب منه ولا يعقل . . . واعلم أن مثل هذا الكلام مني يبدو غريباً ولكنني يا سيدتي على هذا لست ملكاً . . وإن كنت لا بدّ مؤاخذةً على اعتزازي هذا فآخذي سحر جمالك . . فما مطمع بهاؤك الذي ليس من بهاء البشر حتى أصبحت ملكة سراري . . . فتنة تلاحظك الالهية التي لا توصف عذوبتها قد غلبت على المقاومة التي كان يصرُّ عليها قلبي . . وطغت على كل شيء من صوم وصلاة ودموع . وحوّلت كل تضرعاتي وجهة جواذبك. لقد حدثتك بذلك عيناي وتهدداني ألف مرة ولا أزيدك بياناً ، أتكلم اليوم بلساني . . فاذا كنت تنظرين بعين العطف الى الشدائد التي يكابدها عبدك المحروم ، واذا شاءت مكارمك أن تعزيني فترضى بالنزول الى حضيضي فسأحمل لك دائماً ، ايتها الحسناء الشائقة في نفسي عبادة لا مثيل لها . . . وليس من خطر على سعادتك سعي ، فلا تخشي سوءاً من قبلي . . فأن اولئك المتظرّفين المنساء من رجال البلاط وهن بهم هائمات ، اعماهم ضجيج واحاديثهم هراء . . وإنك لتريهم يفخرون دواماً بنجاحهم عند النساء فما يلقون من حظوة الاّ افشوها ، ولسانهم الطويل الذي ينقنّ به يدنس الهيكل الذي يُضحّى عليه بالقلب . أما الذين على شاكلتنا فيحترقون بالنار الخفيّة والسر لديهم مصون . . فالعناية التي تتخذها حفظاً لسمعتنا تشمل المحبوب وتضمن له كل شيء . . فاذا ما تقبلن قلوبنا وجدن منا حبّاً بلا فضيحة ولذة بلا خوف

ألمير : اسمعك تتكلم ، وبلاغتك تتبيّن لي بما فيه الكفاية . . أفلا تخشى أن يبدو لي أن انبيء زوجي نبأ هذه العثرة فتكون بادرة الأثر من إعلان مثل هذا الحب له مغيّرة من صداقته لك ؟ . .

طرطوف : إني اعرف مبلغ ما انطوت عليه نفسك من الخير . . وأنك سترحمين جُرأتي الطائشة ، رعايةً لضعف الانساني ، وتعذرين هذه الثورة الجامحة من حب يجرحك ، وتنظرين نظرةً الى صورتك ، أن الانسان ليس كفيف البصر وأن الرجل من لحم ودم !

المير : قد يقع هذا من نفس غيري ما لا يقع من نفسي . . . ولكني اريد أن ابين لك كتماني ، فلن أعيد حديثك على مسمع زوجي . . غير أني أريد لقاء ذلك منك أن تعجل مخففاً ومن غير أي كيد مضمر زواج فالير بماريان . . وأن تنزل بنفسك عن تلك انسطة الظالمة التي تريد أن تمني أملك من مال غيرك و . . . .

(يخرج داميس من مخدعه)

(ش ٥) وجهة سبيل وكة دودو بشارع سوق السلاح
مقتطف يناير ١٩٣٢

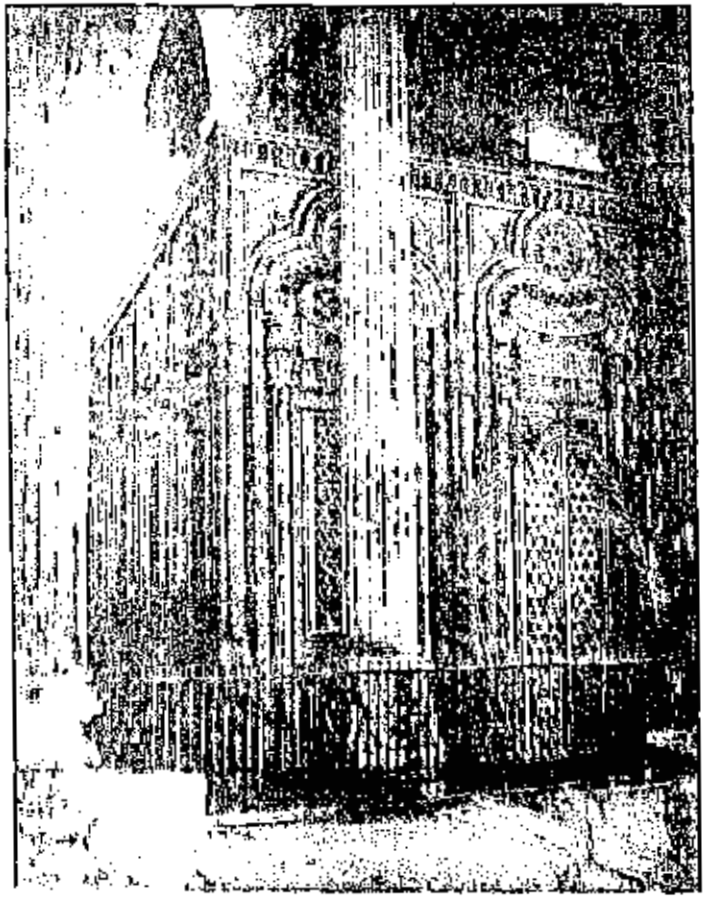

(ش ٦) مقصورة ضريح محمد علي بالقلعة
راجع صفحة ٧٩

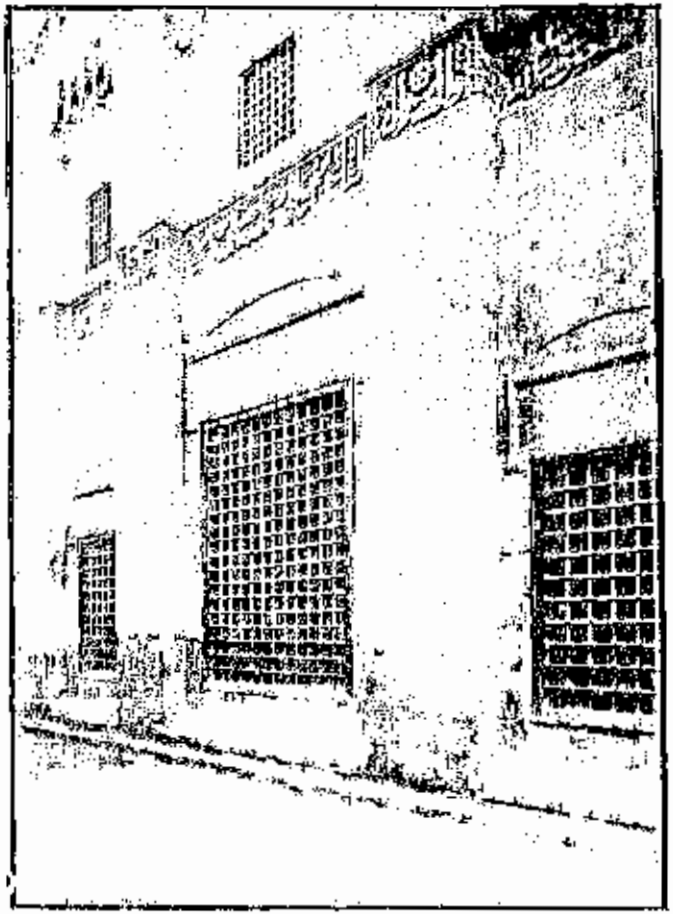

(ش ٧) -- وجهة القبة بمسجد بيبرس الجاشنكير

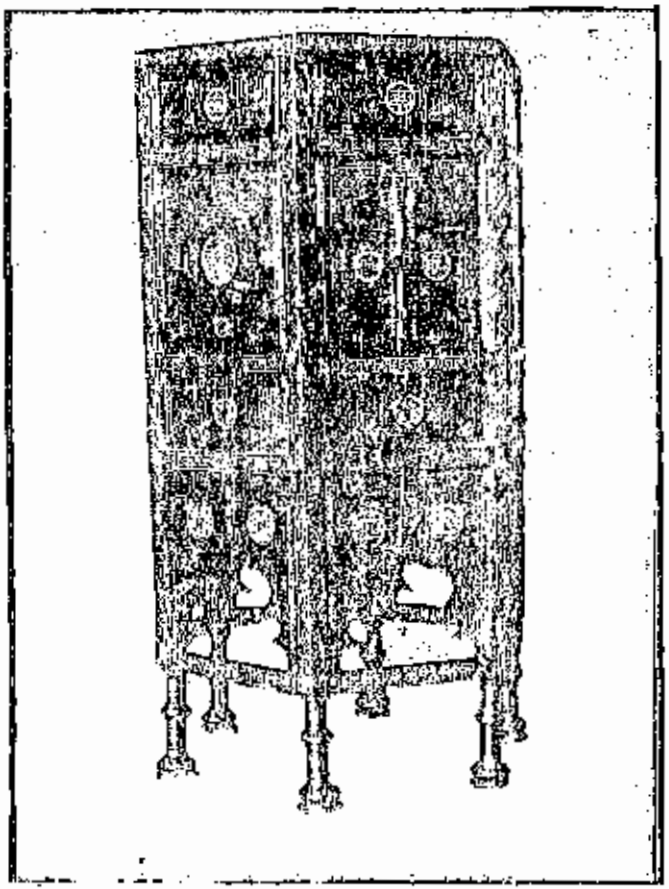

(ش ٨) كرسي الملك الناصر محمد بن قلاوون

امام صفحة ٧٩

مقتطف يناير ١٩٣٢